ملتقى
الإبداع
العربي
والثقافة الإنسانية

الدوحة

صفر ١٣٩٧ هـ - فبراير ١٩٧٧م

مجلة شهرية ثقافية جامعة

معنى التقدم الحضاري

د. يحيى الجمل

مؤتمر لم تلتفت إليه الصحافة

رجاء النقاش

عروبة هذا المغرب

عبد الكريم غلاب

عروبة هذا المغرب

حقيقة لا يعرفها الكثيرون : بلاد المغرب تنتمي الى بلاد العروبة عن طريق السلالة

المغرب هو الجناح الثاني لعالم العروبة والاسلام منذ التاريخ المبكر

قد يكون من الغريب أن نتحدث عن عروبة المغرب في وقت لا يتحدث أحد بغير هذه العروبة ، وفي وقت يقوم فيه المغرب بكل التزاماته العربية من عمله في الجامعة العربية ، الى استضافته لمؤتمر القمة العربي ، الى مشاركته العملية في حرب اكتوبر على جبهتي الجولان وسيناء ، الى تبنيه للدفاع عن القضية العربية الكبرى ، قضية فلسطين ، ومساندته العملية للشعب الفلسطيني وثورته المناضلة . ولكن مع ذلك ما تزال الفكرة عن عروبة البلاد التي تبتعد عن قلب الوطن العربي ـ ومنها بلاد المغرب ـ مضببة عند الكثير من المواطنين العرب ، رغم ظهور الاجيال الجديدة التي عاشت في أحضان الثورة العربية والدعوة الى القومية العربية . فما نزال نذكر علامة الاستغراب التي كانت تبدو على كثير من المواطنين العرب في المشرق العربي ، ومنهم مثقفون كانت لهم مكانتهم في عالم الثقافة ـ حينما نتحدث لهم عن عروبة المغرب ، وحينما كنا ندعو ـ قبل استقلال المغرب ـ الى تبني الجامعة العربية والدول العربية المستقلة آنذاك لقضايا المغرب العربي . كان بالطبع نتيجة عاملين اثنين :

اولهما : جهل مطبق بالوطن العربي في تاريخه وحضارته وواقعه .

وثانيهما : خطأ واضح في فهم معنى العروبة التي كانت الدعوة اليها قد اجتازت مرحلة التفكير الى مرحلة العمل .

ويمكن أن نضيف عاملا ثالثا هو هذه الدعوات الرجعية الناشئة هنا وهناك المعتمدة على قومية ضيقة تستعيض عن العروبة بالفينيقية أو الفرعونية أو الزنجية أو البربرية .

أحفاد علي بن طالب ينشئون دولة مغربية عربية في قلب المغرب

الرؤية غير واضحة :

نتيجة لكل هذه العوامل لم تتضح الرؤية لدى كثير من المواطنين عن عروبة المغرب حتى كان كثير من المثقفين العرب في المشرق يخامرهم شك غامر ، يطفح احيانا على السنتهم واقلامهم ، في عروبة المغرب ، وحتى كان بعضهم يقول عن البلاد العربية الواقعة خارج الجزيرة : بلاد عربية ، وليست البلاد العربية .

ربما كانت المساهمة السياسية في العقدين الاخيرين ـ ومنذ استقلال المغرب بخاصة ـ قد خفضت من حدة الشكك في عروبة بلاد المغرب ، عند المهتمين بالقضايا السياسية ، وعند الذين زاروا هذه البلاد واتصلوا بشعب المغرب عن قرب ، وعند الدارسين الذين عادوا الى التاريخ ليعرفوا أن هذه البلاد ساهمت في التراث الثقافي والادبي والحضاري للبلاد العربية والاسلامية بحظ وافر . ومع ذلك ما تزال الفكرة العامة عند عموم المواطنين العرب أن بلاد المغرب عضو في الوطن العربي بحكم الانتماء السياسي ، وأن اللغة الفصلة فيها هي الفرنسية ، وأن من لا يتقن هذه اللغة قد يجد صعوبة في التفاهم مع شعب المغرب .

والحقيقة المفترى عليها في هذه المقولة أن بلاد المغرب تنتمي الى العروبة عن طريق السلالة . فقد هاجرت الى المغرب قبل الميلاد مجموعات من القبائل العربية اليمنية والكنعانية والفينيقية ، ومع هؤلاء كثير من اهل الشام . واذا عدنا الى النسابين العرب نجد ان بعضهم يؤكد أن البربر من السلالة الحامية ، وبعضهم يؤكد أنهم ساميون ، وبعض الباحثين يؤكد أن اصلهم من اليمن ، بينما يؤكد اخرون أنهم من فلسطين قدموا الى المغرب في هجرات متوالية ، لاسباب في مقدمتها : الصراع الذي حدث في هذه المنطقة . ويعود بعض المؤرخون العرب بالبربر الى القبائل المعروفة في التاريخ كحمير ومضر والعمالقة وكنعان وقريش ، اجتمعوا جميعهم بالشام وهاجروا في هجرات متوالية الى بلاد المغرب الكبير ، أي ما يعرف الان بالمغرب العربي .

وتؤكد الابحاث الانثروبولوجية أن هناك صلات قوية بين البربر والشعوب التي سكنت اليمن .

المؤرخون يؤكدون :

وهناك أدلة علمية على قوة التشابه بين اللهجات البربرية واللغات السامية ، ومنها وجود الحروف الابجدية المنطوقة المتشابهة كحروف الحلق مثلا ، ومنها التشابه في الانغام الموسيقية والغناء ، وخاصة التشابه الواضح بين اغاني الجنوب العربي والاغاني البربرية المتوارثة ، وكذلك التشابه في البناء بين اليمن والمباني البربرية التي تحفل بها القرى في جبال المغرب وكذلك التشابه في العادات والتقاليد الخ ..

كل ذلك يؤكد ما ذهب اليه النسابون والمؤرخون وعلماء الانثروبولوجيا من أن السلالة البربرية تعود الى اصول عربية .

ومهما يكن في هذه الابحاث من افتراضات علمية تارة ، مروية تارة اخرى فان المرحلة التاريخية القريبة التي لا يمكن التشكك في حقائقها تؤكد تعريب المغرب ، سواء عن طريق الهجرات العربية أو عن طريق اللغة والثقافة والفكر والحضارة . تلك هي مرحلة الفتح العربي للمغرب الذي بدأ بفتح مصر وليبيا ثم تونس منذ بداية العقد الثالث للهجرة في خلافة عمر بن الخطاب ثم في خلافة عثمان سنة ٦٤٣م . وقد كان عقبة بن نافع الرجل الذي حط الرحال على شاطىء المحيط سنة ٦٢هـ ٦٨٢م وبعد ارتداد ومعارك متلاحقة بين البربر والعرب ، ثم الفتح النهائي بقيادة حسان بن النعمان سنة ٨٢هـ ٧٠١م .

المهم ان الفتح العربي للمغرب ـ كالفتوح التي تمت لاطراف الجزيرة ومصر ـ انه لم يكن فتحا عسكريا بمقدار ما كان يحمل في طياته العقيدة واللغة والثقافة والفكر ، ويحمل معه مجموعة من المهاجرين العرب يقيمون في هذه البلاد ، لا اقامة مستعمر أو سيد أجنبي ، ولكن اقامة تعاون وتكامل في بناء المجتمع الاسلامي الجديد بكل ما يحفل به من قيم . وهكذا

عروبة هذا المغرب

نجد أن الوافدين على المغرب مع الفتح الاسلامي اختلطوا بالسكان الاصليين عن طريق الزواج والعمل المشترك فانتجوا مجتمعا جديدا يختلف كامل الاختلاف عن المجتمع القديم • ادخلوا الدم الجديد والدين واللغة والثقافة العربية الاسلامية عن طريق الصحابة والتابعين الذين أخذوا يفقهون الناس في قضايا الدين، والذين نشروا القرآن وتعاليمه ، ونشروا المفاهيم الاسلامية الجديدة •

قبائل عربية :

ومع الفاتحين كان هناك جنود وموظفون وتجار ورجال أعمال ، ووفدت قبائل وعشائر عربية بدافع التطلع الى العالم الجديد الذي فتحه الاسلام • ومن العناصر العربية التي دخلت المغرب مجموعات من قبائل معروفة ، منها : بنو هاشم ، وبنو تيم ، وبنو عدى وبنو أسد ، وبنو سهم ، وبنو أمية ، وبنو زهرة ، وبنو عامر ، وبنو هذيل ، وجهينة وأسلم ، ومزينة ، وبنو سليم ، وضمرة ، وغطفان ، واشجع ، وفزارة ، وبنو كعب ، وبنو حذيفة • وأسماء بعض القبائل أو الانتساب اليها ما تزال موجودة الى الآن •

المجموعات التي توادرت على المغرب من هذه القبائل أثرت تأثيرا كبيرا في تعريب المغرب • وقد يكون للاختلاط أثر عكسي كذلك ، فما تزال نجد اسماء عربية ، بل تنتمي الى الأشراف من بيت النبي ، تقطن المناطق البربرية وتتحدث باللهجات البربرية • ولكل ذلك دلالة مهمة على التجاوب والامتزاج الذي حدث في المغرب بين العناصر البربرية والعناصر العربية •

ولعل تعريب المغرب كان يسير وفق تخطيط محكم وضعه سير التاريخ لهذه البلاد • فقد اصبح المغرب الجناح الثاني لعالم العروبة والاسلام منذ التاريخ المبكر ، رغم بعد المسافات بين مركز الدولة العربية في المدينة ثم في الشام وبغداد • زاد في تدعيم هذا المركز أن المغرب قام بدور مهم في نشر الاسلام والعروبة واجتيازهما البحر ـ ولو كان زقاقا ـ من افريقيا الى أوروبا • ونحن نعرف أن فتح الاندلس على يد طارق بن زياد البربري المغربي الاصيل سنة ٩٢هـ ٧١١م ، ومعه جيش مهم من البربر قدره المؤرخون باثني عشر الف مجاهد وبضع مئات من العرب ، هذا الفتح كان صداه في مركز الخلافة من جهة ، وعند القبائل العربية التي كانت تتوق الى العالم الجديد : عالم ما وراء البحر •

وما من شك في أن الفتح لم يكن الا بداية فقد توافد على المغرب الاف من العرب استقر بعضهم واستمر اخرون في طريقهم نحو الاندلس ، التي قام فيها حكم عربي مغربي مشترك نتيجة هجرة كثير من المغاربة • واجتاز الحكم في الاندلس مرحلة الولاة ـ عرب وبربر ـ الى أن قامت دولة عربية أموية في الاندلس بعد انهزام الامويين في الشام افتتحها عبد الرحمن الداخل سنة ١٣٨هـ ٧٥٥م • وقد كان قيام هذه الدولة الاموية بعد انتصار العباسيين مدعاة لهجرة عدد كبير من القبائل العربية التي كانت تدين بالولاء للامويين • وكثير من المهاجرين استقروا في المغرب وكثير منهم اقاموا فيه ، ولو كمرحلة ، وبذلك كان لهم تأثير في تعريب المغرب عن طريق الاختلاط والامتزاج •

مرحلة تاريخية اخرى كان لها اثر كبير في تعريب المغرب هي وجود الادارسة من أحفاد علي بن أبي طالب ، وانشاؤهم دولة مغربية عربية بربرية في قلب المغرب ، وبناؤهم لمدينة كان لها شان كبير في تاريخ المغرب السياسي والحضاري والثقافي هي مدينة فاس • كان ذلك حينما فر ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب من العباسيين الى المغرب بعد انهزام اخيه محمد النفس الزكية سنة ١٧٢هـ ـ ٧٨٨م • وكانت شخصية ادريس قادرة على استقطاب عدد من المهاجرين العرب ليكونوا بجانبه بالاضافة الى البربر مستعربين وغير مستعربين ، وقد استطاع أن ينشر الاسلام ، ومعه العربية ، في مختلف اقاليم المغرب ما بين تلمسان شرقا ـ التي كانت تابعة في كثير من فترات التاريخ للمغرب ـ حتى اقليم سوس جنوبا • واذا كانت سلطة الدولة العباسية (هارون الرشيد على الاخص) قد استطاعت أن تغتاله ، فقد

اكمل رسالته ابنه ادريس الثاني الذي أسس مدينة فاس سنة ١٩٢هـ ـ ٨٠٨م واستقبل فيها كثيرا من القبائل العربية من الازد وقيس ويحصب والخزرج وغيرها ·

وضوح وجه المغرب :

وفي العهد الادريسي بدا وجه المغرب واضحا ، لا في الدولة فحسب ، ولكن كذلك في المجتمع الذي تعرب ، وانتشرت فيه الثقافة العربية الاسلامية واخذ يؤسس مراكز العلم كجامع القرويين التي تطورت فيما بعد الى جامعة اشرفت على الثقافة والعلم في الجناح الغربي من الوطن العربي أزيد من الف ومائة سنة ·

وحينما تذكر هذه الجامعة ـ التي يصفها كثير من المستشرقين بانها اول جامعة في العالم ـ نستشرف لرحلة مهمة من مساهمة المغرب في الثقافة العربية ، التي تقتصر على ما يمكن أن يسمى اليوم بالثقافة التقليدية ·

فقد بدأت الدراسة في الجامع منذ نشأته في منتصف القرن الثالث الهجري (منتصف القرن التاسع الميلادي) واحتضنت العلماء المغاربة والوافدين من الشرق العربي · وازدهرت الدراسة في المسجد ، واصبح كجامعة ، في القرن السادس الهجري ووفد عليها عديد من علماء الاندلس للدراسة والتدريس ، كما وفد كثير من علماء الاندلس للدراسة والتدريس ، وفد كثير من العلماء والطلبة من أوروبا للدراسة في الجامعة التي اصبحت منارة للعلم في المنطقة الغربية من العالم المعروف انذاك ·

ويروى المؤرخون أن البابا سلفستر الثاني تعلم في القرويين (القرن العاشر) ومثله كثير من الرهبان والعلماء الاوروبيين الذين قصدوا مدينة فاس كعاصمة علمية لامعة · وحول الجامعة تكون جو علمي في مجموعة من المدارس (التي كانت تتخذ لها المسجد مكانا للعلم) حتى بلغ عدد المدارس الملحقة بالجامعة في فاس وحدها نحو ٨٠٠ مدرسة · بالاضافة الى المدارس التي انشئت في مختلف مدن المغرب وقراه المهمة ، كمراكش ومكناس وتازة وسبتة وسلا وسلجماسة وجزولة ودرعة واغمات وطنجة وتادلة وغيرها من المراكز العلمية التي اخرجت مئات العلماء في مختلف فروع المعرفة على مر التاريخ · ويبدو من استعراض اسماء هذه الاقاليم والمدن أن الثقافة لم تكن مقتصرة على المدن الشهيرة والاقاليم التي تسكنها اغلبية المعربين ، بل كانت الثقافة العربية مشعة في قلب المناطق التي تسكنها اغلبية من البربر او المتحدثين باللهجات البربرية · وقد ساهمت منطقة سوس مثلا في النشاط الثقافي بالمغرب مساهمة كبرى وأخرجت عديدا من العلماء واللغويين والادباء والشعراء ، وحول القرويين تكونت مكتبة مهمة ما تزال حتى الان تزخر بعديد من المخطوطات النادرة والقيمة في نفس الوقت ·

وقد كانت العلوم التي تدرس بالقرويين وبالمدارس الاخرى تعكس صورة الثقافة العربية الاسلامية في صورتها الشمولية التي تشمل علوم الدين والقانون الاسلامي والعلوم اللغوية والادبية والفلسفية والعلوم الرياضية كالحساب والجبر والهندسة والتوقيت والعلوم الطبية والصيدلية ·

التراث العربي :

واستطاع المغرب من خلال هذه المدارس المحافظة على التراث العربي الاسلامي طيلة أحد عشر قرنا · وساعد على ذلك أن المغرب من بين البلاد القليلة التي لم تندحر فيها الثقافة بفعل حملات الغزو وحملات الصليبيين المدمرة التي لم تصل الى المغرب ، ولا بفعل الفتح العثماني الذي شمل البلاد العربية جميعها وتوقف عند حدود المغرب ·

وما من شك في أن بلادا تتسع لهذه الثروة المهمة من المدارس وهذه الجامعة المشعة على العالم الغربي في المغرب وافريقيا وأوروبا تؤكد عروبتها الفكرية الى جانب عروبتها السلالية كما اوضحنا ·

هذا التاريخ الحافل امد الحاضر بكثير من اشعاعه ، فقد مثل المغرب الاستمرار في الثقافة العربية حتى في عصور التخلف · تضاءلت أهمية القرويين والمدارس الموازية لها وانحصرت الثقافة فيها في العلوم الدينية

عروبة هذا المغرب

واذا كانت أجزاء من المغرب ما تزال تستعمل البربرية لغة حديث ـ على اختلاف لهجاتها بين الريف في الشمال والاطلس المتوسط والوسط والاطلس الكبير في الجنوب ـ الى جانب العربية فان لغة التعليم والتفكير والكتابة والعقود هي العربية مثل ما اصبحت عليه منذ ادريس الأول في منتصف القرن الثاني الهجري .

انهم أن عودة الصلة بين مشرق الامة العربية ومغربها ـ حتى في عهد الاستعمار ـ فتح باب الابتعاث في وجه عروبة المغرب . نجد التعبير عن هذه العروبة فيما ينتج المغرب من أدب ، وفي الاتصال الثقافي بالمشرق العربي بقدر ما نجده في الصلات السياسية وصلات النضال المشترك على جبهتي الجولان وسيناء .

العامل الاساسي الذي يمكن أن يبرز عروبة المغرب خاصة أمام المشرق العربي هو تمتين الصلات بين شطري الوطن العربي . والموضوع يجب أن يخرج من نطاق العاطفة ليتبلور في تبادل الانتاج الثقافي والعلمي بين أجزاء الوطن العربي جميعه .

ولن يتم ذلك الا اذا تخلص المثقفون العرب من عقدة التفوق من جهة ، وعقدة الجهل من جهة اخرى . وهما في الحقيقة عقدة واحدة . ذلك أن الجهل المخيم ـ في مستوى المثقفين ـ على الفكر العربي ، الجهل يبعض البلاد العربية يولد حاسة الانطوائية فيشعر الذين يعيشون في اقليم ما بعدم الحاجة الى الاقتراب فكريا من الاقليم الاخر ، وذلك يعمق ظاهرة الجهل . ومن الجهل تنشأ عقدة التفوق . واحسب أن كثيرا من المثقفين في كثير من البلاد العربية يشعرون بنوع من « الابوة » ـ وهو ليس غير تعبير عن الشعور بالتفوق ـ نحو بلاد عربية اخرى . وبذلك تتسع الهوة بين هذا البلد وذاك من الوطن العربي .

وليس هذا من مصلحة الثقافة العربية في شيء .

الضرورة الان تدعو الى الخروج من العزلة ، والتحرر من العقد ، واعتناق فكرة الوطن العربي ثقافيا ، والتعرف على كل أجزاء هذا الوطن حتى نؤكد لواقعنا اننا ننشيء ثقافة عربية وفكرا عربيا وأدبا عربيا ، لا ثقافة شامية أو عراقية أو جزيرية أو مصرية أو مغربية أو سودانية .

ولتكن عروبة المغرب العريقة في التاريخ العربي ، الباب الذي تدخل منها هذه البلاد نادي الوطن العربي .

واللغوية بالاساليب العتيقة التي تردد ما كتبه الاقدمون . ولكن الظاهرة الواضحة ان الثقافة العربية لم تندحر ، والاسلوب العربي لم يصب بالعقم الذي اصيب به في المشرق العربي في العهد العثماني . ظلت الكتابة والشعر تنبض بالحياة ، وظلت تحافظ على مقوماتها اللغوية والاسلوبية رغم انحسار الثقافة . والكتب التي الفت في العقدين الماضيين ـ سواء كانت كتب رحلات ـ (والادب المغربي حافل بكتب الرحلات) أو كتب تراجم أو كتب التاريخ أو كتب الادب شعره ونثره تؤكد سلامة الاسلوب وطرافته ونصاعته .

تراث ورثة عصر النهضة الادبية في المغرب ، ويبدو أن نهضة الادب العربي عاصرت اليقظة التحررية الاستقلالية التي بدأت في منتصف العشرينات وكان المثل المحتذى هو الادب المتحرر الذي انبعث في مصر والشام والعراق ، وكان شوقي وحافظ ومطران والزهاوي والرصافي وغيرهم من شعراء هذه الفترة المثل الذي كان يلهب حماس الشعراء في المغرب كما كان طه حسين والعقاد وأحمد أمين المثل الذي يحتذيه كتاب المقالة والبحث والقصة .